دار المنظومة
DAR ALMANDUMAH
الرواد في قواعد المعلومات العربية

العنوان:	القاهرة : بدايات التغريب العمراني
المصدر:	الفكر العربي
الناشر:	معهد الإنماء العربي
المؤلف الرئيسي:	زيادة، خالد
المجلد/العدد:	مج 4, ع 29
محكمة:	نعم
التاريخ الميلادي:	1982
الشهر:	نوفمبر
الصفحات:	250 - 264
رقم MD:	426770
نوع المحتوى:	بحوث ومقالات
قواعد المعلومات:	HumanIndex
مواضيع:	تاريخ القاهرة، القاهرة، تاريخ مصر، الهندسة المعمارية، التخطيط العمراني، الحملة الفرنسية
رابط:	http://search.mandumah.com/Record/426770

© 2021 دار المنظومة. جميع الحقوق محفوظة.
هذه المادة متاحة بناء على الإتفاق الموقع مع أصحاب حقوق النشر، علما أن جميع حقوق النشر محفوظة. يمكنك تحميل أو طباعة هذه المادة للاستخدام الشخصي فقط، ويمنع النسخ أو التحويل أو النشر عبر أي وسيلة (مثل مواقع الانترنت أو البريد الالكتروني) دون تصريح خطي من أصحاب حقوق النشر أو دار المنظومة.

القاهرة

بدايات التغريب العمراني

د. خالد زيادة

المؤثرات العمرانية الأوروبية في بعض المدن الإسلامية ظهرت في أوقات مبكرة من القرن الثامن عشر. كان المهندسون الأوروبيون قد تركوا بعض البصمات في **استامبول ومكناس** وبضعة مدن هندية عرفت جاليات أوروبية منوعة. ومظاهر التأثير كانت تتجلى بشكل خاص في هندسة القصور وبناء الثكنات. وبالنسبة لمدينة استامبول، فإن السلطان **أحمد الثالث** (١٧٠٣ ـ ١٧٣٠) أشار على الأمراء من حاشيته ببناء قصور في ضواحي المدينة على غرار قصور **فرساي ومارلي**. والجنرال دوتوت يشير في مذكراته إلى أن مهندسين أوروبيين هم الذين تكلفوا بترميم أحد المساجد في استامبول في أواسط القرن الثامن عشر[١].

تلك أمثلة بسيطة ومتفرقة، ولم تكن في أي وقت من القرن الثامن عشر لتغير من الطابع العام المعروف لأية مدينة إسلامية أو عربية. خصوصاً وأنها لم تمثل سوى إضافات جزئية وفق رغبات الحكام وموافقتهم في أغلب الأحيان.

لكن مدينة **القاهرة** التي لم تتعرف إلى أدنى تأثيرات عمرانية أوروبية في القرن (١٨°)، شهدت مع الحملة الفرنسية (١٧٩٨ ـ ١٨٠١) محاولة إخضاع للنموذج العمراني الأوروبي. وبذلك تلقت مؤثرات، وخلال فترة قصيرة، لم تتلقاها أية مدينة عربية أو إسلامية حتى مطلع القرن التاسع عشر. فقد عمد الفرنسيون ـ كما سنرى ـ إلى القيام بعمليات واسعة النطاق تشمل هدم المباني وتوسيع الطرقات وبناء المباني والجسور وإدخال نماذج من الإنشاءات لم تكن معروفة في القاهرة من قبل. وقد تجاوزت الإجراءات الفرنسية النطاق العمراني المحض لتصل إلى مجالات الإدارة المدنية والحياة الاجتماعية والتدابير الصحية الوقائية وغيرها من الإجراءات والمؤثرات الأخرى، بحيث نشهد خلال تلك المدة بداية المدينة المحدثة.

- ١ -

يقدم لنا المؤرخ عبد الرحمن الجبرتي في «**تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار**»، معلومات تفصيلية عن الإجراءات التي قام بها الفرنسيون. وتأتي هذه المعلومات في سياق تأريخه للحملة الفرنسية في الكتاب المذكور[٢].

في الشهر الأول من دخولهم إلى القاهرة (صفر ١٢١٣/ تموز ـ يوليو ١٧٩٨) بدأ الفرنسيون بأعمال استهجنها أهالي القاهرة، فقد شرعوا في تكسير أبواب الدروب والبوابات النافذة، وخرج عدة من عساكرهم يخلعون ويقلعون أبواب الدروب والعطف والحارات[٣]. ولم يكن سكان القاهرة ليفهموا سبب هذه الأعمال، فاعتقد بعضهم أن الفرنسيين عازمون على قتل المسلمين في صلاة الجمعة[٤]. وعاد الفرنسيون إلى إزالة البوابات في شهر أيلول/سبتمبر من السنة ذاتها[٥]. وفي الشهر نفسه أجلوا سكان القلعة: «وأصعدوا إلى القلعة مدافع ركزوها بعدة مواضع وهدموا بها أبنية كثيرة وشرعوا في بناء حيطان وكرانك، وهدموا أبنية عالية وأعلوا مواضع منخفضة، وبنوا على بدنات باب العزب بالرميلة وغيروا معالمها وأبدلوا محاسنها ومحوا ما كان بها من معالم السلاطين وآثار الحكماء والعظماء.. وهدموا قصر يوسف صلاح الدين»[٦].

وقبل أن يبدأ الفرنسيون بكل هذا الهدم، برزت استجابة محلية لمتطلبات الفرنسيين؛ فقد فتح بعض نصارى الأروام (اليونانيون) عدة دكاكين لبيع أنواع الأشربة وخامير وقهاوي. كما فتح بعض الإفرنج البلديين بيوتاً (مطاعم) يصنع فيها أنواع الأطعمة والأشربة على طرائقهم في بلادهم[٧].

أما الفرنسيون فقد واصلوا اتخاذ الإجراءات الإدارية والمدنية في القاهرة. فقد عملوا على إنشاء ديوان سموه محكمة القضايا[٨]، وذلك بعد ثلاثة أشهر من دخولهم القاهرة تقريباً. في الوقت نفسه الذي اتخذوا فيه سلسلة من التدابير المنوعة، منها الطلب إلى الأغراب بمغادرة المدينة، ومنع الأهالي من دفن الموتى في المقابر القريبة من المساكن، ومطالبة التجار بوثائق تثبت الملكية، وضرورة حصول المسافرين على أوراق ثبوتية، وضرورة إعطاء المواليد شهادات ولادة[٩].

وكانوا كلما أرادوا اتخاذ تدبير جديد الصقوا أوراقاً على الحيطان في مفارق الطرق ورؤوس العطف وأبواب المساجد[١٠]. أما في شهر جمادي الأولى (أكتوبر/تشرين الأول ١٧٩٨)، فقد نادوا في الأسواق بنشر الثياب والأمتعة، فعينوا لكل حارة امرأة ورجلين يدخلون البيوت للكشف على ذلك.. وكل ذلك لذهاب العفونة الموجبة للطاعون. وكتبوا بذلك أوراقاً لصقوها بحيطان الأسواق على عادتهم في ذلك[١١].

أثارت هذه الإجراءات وغيرها الكثير، حذر أهالي القاهرة الذين كانوا يجهلون الغايات من وراء القيام بها.

واعتقدوا أنها موجهة ضدهم أو أنها تمس مشاعرهم. وقد عبر الجبرتي عن ردود الفعل تجاه هدم الأبواب وتكسير الدروب حين يصف مشاعر ومخاوف الأهالي. يقول: « وداخل الناس من ذلك وهم وخوف شديد وظنوا ظنوناً وحصل عندهم فساد مخيلة ووسوسة تجسمت في نفوسهم بألفاظ نطقوا بها وتصوروا حقيقتها وتناقلوها فيما بينهم »[١٢].

وأظهر الجبرتي الريبة من إجراءات محكمة القضايا التي انشأها الفرنسيون، ورأى في « القواعد والأركان » التي تقوم عليها المحكمة بدعاً سيئة؛ أما الشروط التي اشترطها الديوان/المحكمة حول ضرورة إثبات الملكية بوثيقة فقد اعتبرها محاولة للاحتيال. يقول: « وشرطوا في ضمنه شروطاً وفي ضمن تلك الشروط شروطاً أخرى بتعبيرات سخيفة يفهم منها المراد بعد التأمل الكثير لعدم معرفتهم بقوانين التراكيب العربية، ومحصله التحيل على اخذ الأموال كقولهم بأن أصحاب الأملاك يأتون بحججهم وتمسكاتهم الشاهدة لهم بالتمليك، فإذا أحضروها وبينوا وجه تملكهم لها إما بالبيع أو الانتقال لهم بالإرث، لا يكتفى بذلك بل يؤمر بالكشف عليها في السجلات . . »[١٣].

وقد حصل اعتراض صريح على التدبير الفرنسي بهدم التراكيب المبنية على المقابر بتربة الأزبكية. ويصف الجبرتي ما حدث عندما عرف الأهالي بما يجري: « شاع الخبر بذلك، وتسامع أصحاب الترب بتلك البقعة فخرجوا من كل حدب ينسلون وأكثرهم النساء الساكنات بحارات المدابغ وباب اللوق وكرم الشيخ . . إلى أن صاروا كالجراد المنتشر ولهم صياح وضجيج، واجتمعوا بالأزبكية ووقفوا تحت بيت صاري عسكر فنزل لهم المترجمون واعتذروا بأن صاري عسكر لا علم له بذلك الهدم ولم يأمر به، وإنما أمر بمنع الدفن فقط فرجعوا إلى أماكنهم ورفع الهدم عنهم »[١٤].

وعند انتشار الطاعون شدَّد الفرنسيون على مراقبة التزام الأهالي بالإجراءات الوقائية، وعينوا نساءً للكشف على أماكن النساء لهذه الغاية. الا أن ردّ الفعل المصري كان متحفظاً: « كان الناس يأنفون من ذلك ويستثقلونه ويستعظمونه وتحدثهم أوهامهم بأمور يتخيلونها، كقولهم: إنما يريدون بذلك الاطلاع على أماكن الناس ومتاعهم، مع أنه لم يكن شيء سوى التخوف من العفونة والوباء »[١٥].

ومن الطبيعي أن يحاول الفرنسيون إيضاح أغراضهم من وراء هذه التدابير وإظهار حسن النية وتحديد أهدافهم البعيدة التي جاءوا من أجلها. ففي أحد بياناتهم التي أصدروها ووزعوها على أهالي القاهرة أوضحوا أن غايتهم: « استخلاص مصر مما هي فيه، وإراحة أهلها من تغلب هذه الدولة (المماليك) المفعمة جهلاً وغباوة، فقدموا وحصل لهم النصرة ومع ذلك لم يتعرضوا لأحد من الناس ولم يعاملوا الناس بقسوة؛ وأن غرضهم تنظيم

أمور مصر وإجراء خلجانها التي دثرت لها طريقان: طريق إلى البحر الأسود وطريق إلى البحر الأحمر، فيزداد خصبها وريعها . . »[١٦] .

لا شك بأن الفرنسيين كانوا يوزعون بياناتهم ومنشوراتهم بغرض الدعاية السياسية بالدرجة الأولى، ولم تكن هذه البيانات لتخلو من الدجل والاحتيال في الكثير من الأحيان. إلا أن إصرارهم على مجموعة من الأفكار المحددة لم يكن من قبيل الصدفة. وينبغي أن نتذكر بأن هؤلاء الفرنسيين الذين جاءوا إلى مصر في السنة التاسعة للثورة، كانت لديهم آراء صريحة حول التقدم والنظام، لا يحاولون بثها فقط بل تنفيذها أيضاً حسبما يتراءى لهم التنفيذ. ومن هنا نستطيع أن نتفهم الحاحهم على وصف دولة المماليك بالفساد والتذكير بمصر المزدهرة كما جاء في بيانهم الأول الموجه إلى أهالي مصر: « وسابقاً كان في الأراضي المصرية المدن العظيمة والخلجان الواسعة والمتجر المتكاثر، وما أزال ذلك كله الا الظلم والطمع من المماليك »[١٧] . وكأن المماليك يمثلون « النظام القديم » بينما يبغي الفرنسيون إقامة نظام جديد .

- ٢ -

كانت مسألة « الادارة المدنية » هي أولى المهمات التي سعى بونابرت إلى ترتيبها . فبعد أيام قليلة من وصوله الى القاهرة عيّن من بين ممثلي الأهالي ديواناً مكوناً من عشرة أنفار من المشايخ[١٨] .

وبعد حوالي الشهرين أقاموا محكمة القضايا[١٩] المختصة بالشؤون المدنية في القاهرة، ومن جملة اختصاصاتها دعاوى التجار والمواريث. إلا أن الشيء الجديد في هذه المحكمة هو تشكيلها من عدد متساوٍ من المسلمين والمسيحيين وإعطاء المنصب الأول في هذه المحكمة لملطي القبطي. ولا شك بأن هذا الترتيب كان له انعكاس على أوضاع المسيحيين الذين كانوا حتى ذلك الوقت يخضعون في الشؤون المدنية لقوانين الدولة الإسلامية .

ولم يتعرض الفرنسيون لأصحاب المناصب التقليدية المكلفين بالمسائل المدنية كالقاضي والمحتسب، إلا أنهم أعطوا لمحكمة القضايا صلاحيات واسعة وأوجدوا لها مهمات مستحدثة لم تكن معروفة من قبل. ومن ذلك مراقبة الملكيات من خلال شهادات الملكية ومراقبة الولادات من خلال شهادات الولادة ومراقبة الدخول والخروج من القاهرة وإليها وأحدثوا لهذا الغرض ما يشبه جواز السفر: ورقة ويدفع عليها قدراً[٢٠] .

وتبدو لنا محكمة القضايا مجلساً موسعاً يضم صلاحيات قضائية وبلدية في آنٍ معاً. وهي بهذا المعنى أول مجلس بلدي أو إدارة مدنية استحدثت في مدينة إسلامية [٢١] . إلا أن محكمة القضايا هذه لم تستطع أن تفلح في مهماتها وخصوصاً لجهة تركيبها؛ فقد عمد الفرنسيون إلى ترتيب ديوان جديد على نحو مختلف يتميز بالاتساع .

فقد عينوا ستين شخصاً اختاروا من بينهم أربعة عشر يشكلون فيما بينهم الديوان الخصوصي، أما البقية فتشكل الديوان الديموي أو العمومي. ويضم الديوان العمومي بشكل أساسي أرباب الحرف مما يعني أن الفرنسيين كانوا مهتمين بطابعه التمثيلي لما يمثله شيوخ الحرف من سلطة على المنضوين في الأصناف المهنية، عدا عما يحظون به من احترام الأهالي.

ويظهر أن المهمة الرئيسية لهذا الديوان الموسع هي مهمة أمنية بالدرجة الأولى، ويتضح لنا ذلك من خلال ما جاء في البيان الأول الذي صدر عن هذا الديوان. أما الشيء الجديد الذي استحدث مع إنشاء هذا الديوان هو تخصيص رواتب لأعضائه: تدفع إليهم نظير تقيدهم بمصالح العامة[٢٢].

وقد عمد الفرنسيون في نهاية مدة إقامتهم في مصر إلى تشكيل ديوان على نحو مختلف ومختصر، وكان الجبرتي نفسه أحد أعضائه.

ويظهر لنا أن التبديل الذي طرأ مراراً على ترتيب الدواوين يعود بشكل أساسي إلى فشلها المتتابع في إداء مهماتها التي من أجلها شكلت.

وإذا كانت محاولات الفرنسيين إقامة ادارة مدنية قد فشلت إلى حد بعيد، فقد نجحوا في بعض الإجراءات المدينية؛ ومن ذلك بشكل خاص إحصاء الحِرَف في القاهرة لتقرير الضرائب عليها[٢٣]. ومن ذلك أيضاً الإجـراء الغريب الذي اتخذوه لأسباب أمنية ورجعوا عنه بعد وقت قصير وهو الطلب إلى الأغراب من المغاربة وغيرهم والخدامين البطالين ليسافروا إلى بلادهم[٢٤]. . وكذلك مطالبة أصحاب الفنادق بإعلام حاكم البلد بأسماء الوافدين الغرباء: « انه يتحتم ويلزم صاحب كل خمارة أو وكالة أو بيت الذي يدخل في محله ضيف أو مسافر أو قادم من بلدة أو اقليم أن يعرف عنه حالاً حاكم البلد ولا يتأخر عن الاخبار إلا مدة أربعة وعشرين ساعة يعرّفه عن مكانه الذي قدم منه وعن سبب قدومه وعن مدة سفره ومن أي طائفة، أو ضيفاً أو تاجراً أو زائراً أو غريماً مخاصماً لا بد لصاحب المكان من إيضاح البيان »[٢٥].

وفي الفترة الأخيرة من إقامتهم، تدخل الفرنسيون بشؤون الأوقاف، فأمروا بضبط إيرادها وجمعوا المباشرين لذلك، وكذلك الرزق والاحباسية والأطيان المرصدة على مصالح المساجد والزوايا وأرسلوا بذلك إلى حكام البلاد والأقاليم. وقد عمدوا، ضمن سلسلة تدابيرهم لتنظيم شؤون مدينة القاهرة، الى إجراء غريب طريف فقد أمروا بجمع الشحاذين في مكان محدد وطلبوا من نظار الأوقاف الانفاق عليهم[٢٦].

- ٣ -

لعل الإجراءات التي قام بها الفرنسيون في المجال العمراني في مدينة **القاهرة** كانت أبعد أثراً. ويظهر أن تدابيرهم الاولى في هذا المجال والتي طالت بعض أحياء المدينة كان لها هدف أمني بحت. لذا عمدوا مع بداية دخولهم إلى تحطيم البوابات التي تجعل من كل حي وحدة مغلقة قائمة بذاتها. وقد استمروا في عملهم هذا لوقت طويل، اذ كانوا يعودون إليه من وقت إلى آخر. والوصف الذي يقدمه الجبرتي بأسطر قليلة لما قاموا به في هذا الصدد في شهر ربيع الثاني ١٢١٣ (أيلول/سبتمبر ١٧٩٨) أي بعد ثلاثة أشهر فقط من وصولهم إلى القاهرة يقدم لنا فكرة عن إلحاحهم في التخلص من كل الحواجز التي تمنعهم من دخول الحارات والأحياء. يقول: « وفيه شرعوا في خلع البوابات والدروب غير النافذة أيضاً ونقلوا الجميع إلى بركة الأزبكية عند رصيف الخشاب، والبوابة الكبيرة يقطعونها نصفين ويرفعونها بالعتالين إلى هناك، فاجتمع من ذلك شيء كثير جداً وامتلأ من رصيف الخشاب إلى قريب وسط البركة »[١٧]. وحتى تمتلىء هذه المساحة الواسعة بهذا العدد من البوابات، يعني ان عدداً كبيراً منها قد أزيل فعلاً. وقد كان لهذا الإجراء، الأمني بالدرجة الأولى من جانب الفرنسيين، أثره الذي سيظهر بعد وقت قصير. إذ إن إزالة البوابات سيؤدي إلى الحد من الاستقلالية التي كان يتمتع بها كل حي من الأحياء حتى ذلك الوقت.

وبعد حوالي الشهر قاموا بعملية أستهدفت الأزقة والدروب والأحياء الصغيرة، بعد الفراغ من الأحياء الكبيرة كما يظهر: « وفيه أيضاً قلعوا أبواب الدروب والحارات الصغيرة غير النافذة وهي التي كانت تركت وسومح أصحابها وبرطلوا عليها وصالحوا عليها قبل الحادثة. وبرطلوا القلقات والوسايط على إبقائها، وكذلك دروب الحسينية. فلما انقضت هذه الحادثة ارتجعوا عليها وقلعوها ونقلوها إلى ما جمعوه من البوابات بالأزبكية »[٢٨]. ويتضح لنا هنا أن الفرنسيين، وبعد الحادثة - أي ثورة **القاهرة** الأولى - قد شعروا بضرورة مواصلة العمل الذي بدأوه من قبل، وهو إزالة كل ما يمكن إزالته من البوابات والحواجز التي تعيق وصولهم إلى أحياء القاهرة الداخلية.

لكن هدم البوابات لم يكن إلا جانباً بسيطاً من إجراءاتهم داخل أحياء القاهرة. فقد انتقلوا من خلع البوابات إلى هدم الأبنية. فبعد أن أمروا سكان القلعة بالخروج من منازلهم، هدموا بها أبنية كثيرة وشرعوا في بناء حيطان وكرانك وأسوار. ان الجبرتي ليتنبه إلى ما يقوم به الفرنسيون من تغيير معالم المدينة التاريخية. يقول: « وهدموا أبنية عالية وأعلوا مواضع منخفضة، وبنوا على بدنات باب العزب بالرميلة وغيروا معالمها وأبدلوا محاسنها ومحوا ما كان بها من معالم السلاطين وآثار الحكماء والعظماء، وما كان في الأبواب العظام من

الأسلحة والدرق والبلط والحوادث والجرب واكر الفدادية. وهدموا قصر يوسف صلاح الدين ومحاسن الملوك والسلاطين وذوات الأركان الشاهقة والأعمدة الباسقة »[٢٩].

ويبدو أن منطقة الأزبكية التي اختارها الفرنسيون مركزاً لقيادتهم قد تعرضت أكثر من المناطق الأخرى لأعمال الهدم وإعادة البناء ولذلك فقد: « أمروا بقية السكان على بركة الأزبكية وما حولها بالنقلة من البيوت ليسكنوا بها جماعتهم المتباعدين منهم ليكون الكل في حومة واحدة »[٣٠]. وكذلك، فإن منطقتي الروضة والجيزة قد شهدتا ما شهدته الأزبكية، ويذكر الجبرتي بعض ما جرى في هاتين المنطقتين من أعمال الهدم: « ومنها أنهم هدموا وبنوا بالمقياس والروضة وهدموا أماكن بالجيزة ومهدوا التل المجاور لقنطرة الليمون.. وهدموا الجامع المجاور لقنطرة الدكة وشرعوا في ردم جهات حوالي بركة الأزبكية وهدموا الأماكن المقابلة لبيت صاري عسكر حتى جعلوها رحبة متسعة، وهدموا الأماكن المقابلة لها من الجهة الأخرى.. »[٣١].

ويظهر أن عمليات الهدم في صيف (١٨٠٠) قد توسعت وطالت بيوت الأمراء من المماليك واتسمت أعمالهم عندها بنوع من معاقبة الأهالي: « شرعوا في هدم اخطاط الحسينية وخارج باب الفتوح وباب النصر من الحارات والدور والبيوت والمساكن والمساجد والحمامات والحوانيت والأضرحة، فكانوا إذا دهموا داراً وركبوها للهدم لا يمكنون أهلها من نقل متاعهم ولا أخذ شيء من أنقاض دارهم »[٣٢].

إلاّ أنّ عمليات الهدم كانت تترافق مع عمليات تمهيد وبناء وشق طرقات وإقامة جسور. ويظهر أن النشاط الذي أبدوه قد أثار انتباه الجبرتي نفسه حين يصف سرعتهم في العمل والتنفيذ في هذا المقطع المسهب نسبياً:

« وردموا مكانها بالأتربة الممهدة على خط معتدل من الجهتين مبتدأ من حد بيت صاري عسكر إلى قنطرة المغربي وجددوا القنطرة المذكورة وكانت آلت إلى السقوط. وفعلوا بعدها كذلك على الوضع والنسق بحيث صار جسراً عظيماً ممتداً ممهداً مستوياً على خط مستقيم من الأزبكية إلى بولاق قسمين: قسم إلى طريق أبي العلا وقسم يذهب إلى جهة التبانة وساحل النيل، وبطريقه الطريق المسلوكة الواصلة من طريق أبي العلا وجامع الخطيري إلى ناحية المدابغ. وحفروا في جانبي ذلك الجسر من مبدئه إلى منتهاه خندقين وغرسوا بجانبه أشجاراً وسيسباناً. وأحدثوا طريقاً أخرى فيما بين باب الحديد وباب العدوى.. وردموا جسراً ممتداً ممهداً مستطيلاً وأزالوا ما يتخلل بين ذلك من الأبنية والغيطان والأشجار والتلول وقطعوا جانباً كبيراً من التل الكبير المجاور لقنطرة الحاجب. وردموا في طريقهم قطعة من خليج بركة الرطلي.. وساروا على المنخفض بحيث صارت طريقاً ممتدة من الأزبكية إلى جهة قبة النصر المعروفة بقبة الغرب جهة العادلية على خط مستقيم من الجهتين. وقيدوا بذلك أنفاراً منهم يتعاهدون تلك الطرق ويصلحون ما يخرج منها عن قالب الاعتدال.. وفعلوا هذا الشغل

الكبير والفعل العظيم في أقرب زمن، ولم يسخروا أحداً في العمل بل كانوا يعطون الرجال زيادة عن أجرتهم المعتادة ويصرفونهم من بعد الظهيرة، ويستعينون في الأشغال وسرعة العمل بالآلات القريبة المأخذ السهلة التناول المساعدة في العمل وقلة الكلفة . . »[٣٣] .

تقدم لنا هذه الصورة فكرة عن نشاط الفرنسيين في أعمال العمران، وتعطينا، أيضاً، فكرة عن الشكل الجديد الذي بدأت تأخذه القاهرة إثر هذه الأعمال، ولم تكن بالأعمال الوحيدة، فقد أقام الفرنسيون أبنية أخرى لإسكان المهندسين والفلكيين ولخزن أسلحتهم. وبنوا بناءً خصّصوه للكرنتينة في جزيرة بولاق[٣٤] . ويقدم لنا الجبرتي وصفاً مفيداً لحصيلة الهدم والبناء حين يتحدث عما أسفرت عنه الحملة الفرنسية في هذا المجال. فقد طالت عمليات الهدم دروباً وحمامات ومساجد ومزارات وزوايا وتكايا، وبالمقابل فقد بنوا قلاعاً وأبراجاً وحصوناً؛ وكله في زمن قليل عدا عن إقامة الجسور وتوسيع الطرقات لمرور العربات الكبيرة التي ينقلون عليها المتاع واحتياجات البناء. ويبدو أن خروجهم قد أوقف بعض المشاريع التي كانوا بصدد تنفيذها: « ولو طال الحال لهدموا مساطب العقادين والغورية والصاغة والنحاسين . . »[٣٥] .

ويمكننا أن نتخيل القاهرة سنة (١٨٠٠) خلال وجود الفرنسيين فيها وقد تغيرت بعض المعالم فيها، فحاراتها بدون بوابات وقد عرفت الطرق الواسعة الممهدة وبعض الأبنية على الطراز الأوروبي، ويمكننا ان نتخيل أزقة أكثر نظافة بفضل التدابير الصارمة التي شدد عليها الفرنسيون. وينبغي أن نتخيل القاهرة في وقت من الأوقات خالية من الشحاذين الذين جمعوا في مكان واحد، لا يتجول فيها سوى عدد قليل من الأغراب بفعل تدابير الفرنسيين أو بفعل عدم الرغبة في زيارة مدينة محتلة. وفي وقت من الأوقات خلت حارات القاهرة من الكلاب حين قرر الفرنسيون إبادتها.

وقد قرر الفرنسيون إنارة حارات القاهرة عندما نادوا في أيلول/سبتمبر من سنة (١٧٩٨) بوقود قناديل سهارى بالطرق والأسواق وأن يكون على كل دار قنديل وعلى كل ثلاثة دكاكين قنديل وأن يلازموا الكنس والرش وتنظيف الطرق من العفوشات والقاذورات[٣٦] . وقد عدلوا في طلبهم هذا مع مطلع سنة (١٧٩٩)، وقد لمسوا استحالة تنفيذه بشكل تام فنادوا بابطال القناديل التي توقد في الليل على البيوت والدكاكين وأن يوقدوا عوضها في وسط السوق مجامع في كل مجمع أربعة قناديل بين كل مجمع وآخر ثلاثون ذراعاً[٣٧] .

- ٤ -

خلفت الحملة الفرنسية آثاراً اخرى، يمكن وصفها بأنها آثار اجتماعية أدخلت عادات جديدة على القاهرة لم

تكن معروفة لسكانها من قبل. والأثر البارز في هذا المجال هو التبدل الذي طرأ بالدرجة الأولى على سكان القاهرة من الأقباط، وقاطنيها من نصارى الشام واليونان. وقد أفاد بعض هؤلاء من فرصة الدخول الفرنسي فعملوا في الشهر الأول من وصول الفرنسيين إلى القاهرة على إنشاء مقاهي وخمارات ومطاعم مخصصة لخدمة الفرنسيين [٣٨]، وأدخلوا بذلك تقليداً جديداً لم يكن مسموحاً من قبل. ويلاحظ الجبرتي ما طرأ على أحوال النصارى عموما من تبدل، يقول: « ومنها ترفع أسافل النصارى من القبط والشوام والأروام واليهود وركوبهم الخيول وتقلدهم بالسيوف بسبب خدمتهم للفرنسيين ومشيهم الخيلاء وتجاهرهم بفاحش القول واستذلالهم المسلمين. » [٣٩].

وبمناسبة وفاء النيل، وهو مناسبة اجتماعية وعيد « وطني » يحرص الجبرتي على ذكر ميعاده عند حدوثه وذكر الاحتفال به كل عام، فقد حصل إبانه تبدل واضح سنة (١٢١٤/١٧٩٩) يذكره على الوجه التالي: « في يوم الأثنين التاسع مسرى القبطي، كان وفاء النيل المبارك فنودى بوفائه على العادة، وخرج النصارى البلدية من القبطة والشوام والأروام وتأهبوا للخلاعة والقصف والتفرج واللهو والطرب » [٤٠].

ويصف الجبرتي ما جرى في تلك الليلة موضحاً تلك التبدلات التي طرأت على أحول النصارى بشكل خاص: « وذهبوا تلك الليلة إلى بولاق ومصر العتيقة والروضة وأكثروا المراكب ونزلوا فيها وصحبتهم الآلات والمغاني وخرجوا في تلك الليلة عن طورهم ورفضوا الحشمة وسلكوا مسلك الأمراء سابقاً من النزول في المراكب الكثيرة والمقاذيف وصحبتهم نساؤهم وقحابهم وشرابهم وتجاهروا بكل قبيح من الضحك والسخرية والكفريات ومحاكاة المسلمين.. ووقع في تلك الليلة بالبحر وسواحله من الفواحش والتجاهر بالمعاصي والفسوق ما لا يوصف. وسلك بعض غوغاء العامة وأسافل العالم ورعاعهم مسالك تسفل الخلاعة ورذالة الرقاعة بدون أن ينكر احد على احد من الحكام أو غيرهم، بل كل إنسان يفعل ما تشتهيه نفسه وما يخطر بباله وإن لم يكن من امثاله » [٤١].

ويظهر لنا الجبرتي أن تبدلاً فعلياً قد أصاب جماعة الأقباط في تلك المدة، وقد استمدوا من الفرنسيين قوة وصار لهم نفوذ في القاهرة؛ من ذلك: « إن يعقوب القبطي لما تظاهر مع الفرنساوية وجعلوه ساري عسكر القبطة جمع شبان القبط وحلق لحاهم وزيّاهم بزي مشابه لعسكر الفرنساوية.. وصيرهم عسكره وعزوته.. وهدم الأماكن المجاورة لحارة النصارى التي هو ساكن بها خلف الجامع الأحمر وبنى له قلعة وسوّرها بسور عظيم وأبراج وباب كبير يحيط به بدنات عظام، كذلك بنى أبراجاً في ظاهر الحارة جهة بركة الأزبكية، وفي جميع السور المحيط والأبراج طيقاناً للمدافع وبنادق الرصاص على هيئة سور مصر الذي رممه الفرنساوية ورتب على

باب القلعة الخارج والداخل عدة من العسكر »[٤٢] .

ولم يكن الأقباط وحدهم الذين استفادوا من الدخول الفرنسي فرتبوا أمورهم وبدلوا في أوضاعهم؛ بل إن مظاهر التبدل « الاجتماعي » قد طالت النساء بشكل خاص حين لبى بعضهم نداء التغريب واستجابوا لنزعة تحررية غامضة، ينظر اليها الجبرتي بإنكار واستهجان شديدين. ويمكننا أن نستشعر تلك التبدلات من خلال هذه الفقرة المعبرة:

« ومنها تبرج النساء وخروج غالبهن عن الحشمة والحياء، وهو انه لما حضر الفرنسيين إلى مصر ومع البعض منهم نساؤهم كانوا يمشون في الشوارع مع نسائهم وهن حاسرات الوجوه لابسات الفستانات والمناديل الملونة.. ويركبن الخيول والحمير ويسوقونها سوقاً عنيفاً مع الضحك والقهقهة ومداعبة المكارية معهم وحرافيش العامة، فمالت اليهم نفوس أهل الأهواء من النساء الأسافل والفواحش فتداخلن معهم لخضوعهم للنساء وبذل الأموال لهن، وكان ذلك التداخل أولاً مع بعض احتشام وخشية عار ومبالغة في إخفائه فلما وقعت الفتنة الأخيرة بمصر وحاربت الفرنسيس بولاق.. ولما حل بأهل البلاد من الذل والهوان وسلب الأموال واجتماع الخيرات في حوذ الفرنسيس ومن والاهم وشدة رغبتهم في النساء... صار مع حكام الأخطاط منهم النساء المسلمات متزيّات بزيهم ومشوا معهم في الأخطاط للنظر في أمور الرعية »[٤٣] .

ـ هذا شأن بعض نساء مصر، أما الجواري السود، فإنهن لما علمن رغبة القوم في مطلق الأنثى ذهبن اليهم أفواجاً[٤٤] .

ويبدو لنا بوضوح أن هذه التبدلات الاجتماعية كانت تنطوي على مغزى عميق في واقع الأمر فلكي تستجيب الفئات المضغوطة من قبط ونساء وجواري (عبيد) للتعامل مع الفرنسيين فهذا يعني أن هذه الفئات قد وجدت منافذ جديدة لها في هذا الوضع الطارىء، وينطبق الأمر على الفئات المتواضعة والتي يسميها الجبرتي بأصحاب المهن الخسيسة والحرافيش والسفلة، فقد قام هؤلاء بما تشتهيه نفوسهم وما يخطر في أذهانهم، بما في ذلك تقليد الأمراء السابقين، وينبغي أن نتفهم هنا ماذا كانت تعني إجراءات الفرنسيين بالنسبة لهذه الفئات المضغوطة التي لم يغضبها المصير الذي آل إليه المماليك.

ـ ٥ ـ

من بين الاجراءات التي اتخذها الفرنسيون في القاهرة، وتحتل حيزاً خاصاً بها، تلك الاجراءات المتعلقة بالصحة العامة في المدينة. ويظهر أن الخوف من الطواعين والأمراض المعدية كان هاجساً فرنسياً لهذا عمدوا إلى سلسلة

من الترتيبات التي طبعت الحياة اليومية في القاهرة بطابعها الخاص.

واول تدابيرهم بهذا الخصوص طلبهم نشر الثياب والأمتعة خمسة عشر يوماً، وعينوا لكل حارة امرأة ورجلين يدخلون البيوت للكشف عن ذلك فتصعد المرأة إلى اعلى الدار وتخبرهم عن صحة نشرهم الثياب[٤٥]. وعمدوا في فترة لاحقة إلى بناء كرنتينة في بولاق: «وبنوا هناك بناء فيحجزون بها القادمين من السفار أياماً معدودة» [٤٦].

وللغرض نفسه كانوا نبهوا على الناس بالمنع من دفن الموتى بالترب القريبة من المساكن كتربة الأزبكية والرويعي، ولا يدفنون الموتى إلا في القرافات البعيدة[٤٧].

ويذكر الجبرتي بعض التدابير الوقائية التي طلب الفرنسيون من الأهالي الالتزام بها، ومن ذلك نشر الثياب والأمتعة والفرش بالأسطحة عدة أيام. وتبخير البيوت المذهبة للعفونة.. ويقولون أن العفونة تنحبس بأغوار الارض، فإذا دخل الشتاء وبردت الأغوار بسريان النيل والأمطار والرطوبات خرج ما كان منحبساً بالارض من الابخرة الفاسدة فيتعفن الهواء فيحصل الوباء والطاعون. ومن قولهم أيضاً ان مرض مريض لا بد من الإخبار عنه فيرسلون من جهتهم حكيماً للكشف عليه.

وعندما أشتد أمر الطاعون مجدداً في ربيع (١٨٠٠) حصل جدل حول إقامة الكرنتينة، فقد ذكر وكيل الديوان للمشايخ: «ان حضرة ساري عسكر بعث إليَّ كتاباً معناه إيضاح ما يتعلق بأمر الكرنتينة ويرى رأيكم في ذلك وهل توافقون على رأي الفرنساوي أم تخالفون؟ فقالوا حتى ننظر ما هو المقصود. فقال: حضرة أرباب الديوان يجب عليهم ان يعلموا الطريق الذي يكون سبباً لانقطاع هذه العلة، فإننا نبغي لهم ولغيرهم الخير، فإن اجابوا فذاك وإلا فيلزموا ولو قهراً، وربما استعملنا القصاص ولو بالموت عند المخالفة... وانفض المجلس على أن الوكيل سيفاوض ساري عسكر في ذلك ثم يدبرون امراً وطريقة يكون فيها الراحة للناس البلدية والفرنساوية، فإن ذلك فيه مشقة على أهل البلد لعدم إلفتهم لهذه الأمور». [٤٨].

خرج الفرنسيون من مصر، وكان من الصعب تطويق كافة آثارهم وخصوصاً تلك التي طبعت المدينة بطابعها. ويمكننا ان نلاحظ اليوم كيف أن الإدارة العثمانية انقادت إلى محاكاة بعض ما كان يتخذه الفرنسيون من إجراءات: فقد كتبت فرمانات والصقت بالشوارع ومفارق الطرق حسب العادة التي استحدثها الفرنسيون، وفي الفرمانات الطلب إلى الأهالي بإيقاد القناديل ليلاً على البيوت والمساجد والوكائل والخانات التي بالشوارع[٤٩].

وكذلك فإن عادة الهدم وإعادة البناء لم تتوقف نهائياً وقد شرع الباشا في هدم الأماكن المجاورة لمنزله التي

تهدمت واحترقت في واقعة الفرنسيس ليبنيها مساكن للعساكر[٥٠] . وفي الفترة نفسها يذكر الجبرتي: «كمل تتميم عمارة المقياس على ما كان عمره الفرنسيس». ولا نستغرب ما يذكره الجبرتي: أن العساكر وقفت صفوفاً ببنادقهم وفيهم كثير على هيئة اصطفاف الفرنسيس[٥١] . ولكن لنا أن نستغرب هذا الإجراء الذي يذكرنا بإجراء فرنسي مشابه، فقد: «نادى الآغا والوالي بالأسواق على العثمانية والأتراك والأغراب من الشوام والحلبية بالسفر والخروج من مصر فكل من وجد بعد ثلاثة أيام فدمه هدر..»[٥٢] .

وفي مطلع (١٨٠٤) تجدد الطلب بإيقاد القناديل: «نودي بوقود القناديل ليلاً على البيوت والوكائل وكل ثلاثة دكاكين قنديل، وفي صبحها شق الوالي وسمر عدة حوانيت بسبب القناديل وشدد في ذلك»[٥٣] .

وتدريجياً، يمكننا أن نكتشف بأن تدابير الفرنسيين لم تذهب هباء. فقد طلب الباشا أجرة الأملاك بموجب قوائم الفرنساوية[٥٤] . ومع محمد علي باشا ستتم العودة أكثر فأكثر الى التدابير الفرنسية؛ فعندما وردت الأخبار المترادفة بوقوع الطاعون بإسلامبول. أشار الحكماء على الباشا بعمل كورنتينة على قاعدة اصطلاح الإفرنج ببلادهم فلا يدعون أحداً من المسافرين الواردين في المراكب من الديار الرومية يصعد إلى البر إلا بعد مضي أربعين يوماً من وروده، وإذا مات بالمركب أحد في أثناء المدة أستأنفوا الأربعين[٥٥] .

ويبدو أن محمد علي باشا كان مغرماً هو الآخر بأعمال الهدم والبناء، أما الجبرتي، فإنه يظهر الشكوى من أعمال الهدم كما أظهرها إبان الحملة الفرنسية، وخصوصاً استهجانه لإزالة المعالم التاريخية: «ومنها أنه هدم سراية القلعة وما اشتملت عليه من الأماكن فهدم المجالس التي كانت بها والدواوين، وديوان قايتباي وهو المقعد المواجه للداخل إلى الحوش.. وديوان الغوري الكبير وما اشتمل عليه من المجالس التي كانت تجلس بها الأفندية والقلفاوات أيام الدواوين، وشرع في بنائها على وضع آخر، واصطلاح رومي وأقاموا اكثر الأبنية من الأخشاب، ويبنون الأعالي قبل بناء السفل..»[٥٦] .

ولم يتوقف العمل بتوسيع الطرقات والدروب وإن اختلفت الأسباب ويذكر الجبرتي: «طاف أصحاب الشرطة ومعهم رجال وبأيديهم مقياس فكلما مروا بناحية أو طريق يضيق عن القياس هدموا ما عارضهم من مساطب الدكاكين أو غيرها من الجهتين لاتساع الطريق لمرور العربات والملاعيب وغيرها، فأتلفوا كثيراً من الأبنية ونودي في يوم الأربعاء بزينة الحوانيت والطرق التي تمر عليها الزفة بالعروس»[٥٧]، وهي ابنة الباشا.

وقد كان الباشا مولعا بهدم القديم أكثر من ولع ضباط الحملة الفرنسية، فقد أطلق المنادة في البلدة وندب جماعة من المهندسين والمباشرين للكشف على الدور والمساكن، فإن وجدوا به أو ببعضه خللاً أمروا صاحبه بهدمه وتعميره، فإن كان يعجز عن ذلك فيؤمر بالخروج منها واخلائها ويعاد بناؤها على طرف الميري وتصير من

حقوق الدولة . وسبب هذه النكتة أنه بلغ الباشا سقوط دار ببعض الجهات ومات تحت ردمها ثلاثة أشخاص من سكانها . . »[٥٨] .

ولو تتبعنا أعمال محمد علي باشا العمرانية لأستطعنا ان نتعرف إلى أصولها . فقد أمر ببناء مساكن للعسكر الذين أخرجهم من مصر بالأقاليم يسمونها القشلات[٥٩] . ومنها استمرار الإنشاء في السفن الكبار والصغار[٦٠] . ومنها أنه أنشأ جسراً ممتداً من ناحية قنطرة الليمون على يمنة السالك إلى طريق بولاق متصلا إلى شبرا على خط مستقيم[٦١] .

خلال ثلاث سنوات في نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر، عرفت القاهرة أوسع عملية تغريب تعرفها مدينة عربية حتى ذلك الوقت . ولقد جرت آنذاك محاولة لإقحام نموذج المدينة الغربية في مدينة القاهرة وهي من أبرز المدن تمثيلا لخصوصية المدينة الإسلامية ـ العربية . ولقد أعطى الفرنسيون لأنفسهم حرية التصرف في الهدم والخلع وتوسيع الشوارع وتمهيد الطرقات، ومن المؤكد أنهم ما كانوا ليحصلوا في بلادهم على حق مشابه ليتصرفوا على هواهم ووفق ما يرتأونه أو يرتجلونه من قرارات .

والمسألة التي تعنينا تكمن في القاعدة التي أرساها الفرنسيون وتتمثل في إحلال نموذج مكان آخر دون اخذ خصوصية هذه المدينة أو تلك بعين الأعتبار . وقد أدّى هذا الوضع المستجد والمقحم إقحاماً الى عواقب وخيمة . وقد أدت عمليات الهدم إلى تهجير السكان وإفقادهم موارد رزقهم، وهذه أولى السلبيات . ولكن السلبيات الفعلية والبعيدة الأثر تمثلت في تأثير التبدلات العمرانية على اختلال النظام الاجتماعي . فقد وجد شيوخ الحارات ومشايخ الحرف صلاحياتهم تتقلص وتتلاشى أمام إدارات عاجزة عن القيام بما رسم لها من مهمات، وفي الوقت نفسه خسر الأهالي ممثليهم الفعليين، وفقدت الطوائف الحرفية أربابها الذين يرعون مصالحها .

ومن الملفت للانتباه أن يكون حاكم مصر في النصف الأول من القرن التاسع عشر متحمساً لإكمال ما ابتدأه الفرنسيون . وأظهر حماسة فائقة للهدم وتغيير المعالم، وباختصار إقحام نموذج على وضع لم يتقبله .

الحواشي

(١) انظر كتابنا « **اكتشاف التقدم الأوروبي** » دار الطليعة، بيروت (١٩٨١)، الصفحات (٩ - ٣٦ - ٤٧ - ٤٨).

(٢) نعتمد هنا على طبعة دار الجيل الثانية، بيروت (١٩٧٨).

(٣) الجبرتي، **عجائب الآثار**، المجلد الثاني صفحة (١٩٧).

(٤) نفسه، م٢، صفحة (١٩٨).

(٥) م٢، ص (٢٠٦).

(٦) م٢، ص (٢١١).

(٧) م٢، ص.ص (١٩٥ - ١٩٦).

(٨) م٢، ص (٢٠٩).

(٩) م٢، ص.ص (٢٠٨ - ٢١٠).

(١٠) م٢، ص (٢٠٩).

(١١) م٢، ص (٢١٧).

(١٢) م٢، ص (١٩٨).

(١٣) م٢، ص (٢٠٩).

(١٤) م٢، ص (٢١٢)

(١٥) م٢، ص (٣٠٥).

(١٦) م٢، ص (٢١٤).

(١٧) م٢، ص (١٨٣).

(١٨) م٢، ص (١٩٤).

(١٩) م٢، ص (٢٠٩).

(٢٠) م٢، ص (٢١٠).

(٢١) **قارن** بـ « **برنارد لويس** » (إصلاح الأنظمة البلدية في عهد الأمبراطورية العثمانية، التراث الذي خلفته الأمبراطورية العثمانية للدول العربية المستقلة) ضمن : تخطيط المدن في العالم العربي. نشر المنظمة العالمية لحرية الثقافة، القاهرة (١٩٦٠). الصفحات (٩٩ - ١٠٨).

(٢٢) **الجبرتي**، م، ص (٢٣٨ - ٢٣٩).

(٢٣) قارن بعبد الكريم رافق، **مظاهر من التنظيم الحرفي في بلاد الشام في العهد العثماني** ضمن مجلة: دراسات تاريخية، العدد الرابع دمشق (١٩٨١) ص.ص (٣٠ - ٦٢).

(٢٤) **الجبرتي** م٢، ص (٢٠٨).

(٢٥) نفسه، م٢، ص (٢٦٤).

(٢٦) م٢، ص (٣٩٨).

(٢٧) م٢، ص (٢٠٦).

(٢٨) م٢، ص (٢٢٦).

(٢٩) م٢، ص (٢١١).

(٣٠) م٢، ص (٢٢٧).

(٣١) م٢، ص (٢٣١).
(٣٢) م٢، ص (٣٩٤).
(٣٣) م٢، ص (٢٣١ - ٢٣٢).
(٣٤) م٢، ص (٢٥١).
(٣٥) م٢، ص.ص (٤٣٢ - ٤٣٥).
(٣٦) م٢، ص (٢٠٨).
(٣٧) م٢، ص (٢٤٥).
(٣٨) م٢، ص (١٩٦).
(٣٩) م٢، ص (٢٥٠).
(٤٠) م٢، ص (٣٠١).
(٤١) م٢، ص (٣٠٢).
(٤٢) م٢، ص (٤٣٨).
(٤٣) م٢، ص (٤٣٦).
(٤٤) م٢، ص (٤٣٧).
(٤٥) م٢، ص (٢١٧).
(٤٦) م٢، ص (٢٥١).
(٤٧) م٢، ص (٢١١).
(٤٨) م٢، ص (٤٠٩).
(٤٩) م٢، ص (٥١١).
(٥٠) م٢، ص (٥٣٤).
(٥١) م٢، ص (٥٤٠).
(٥٢) م٢، ص (٥٩٨).
(٥٣) م٢، ص (٦١٧).
(٥٤) **الجبرتي** المجلد الثالث، ص (٦١).
(٥٥) نفسه م٣، ص (٣٦٠ - ٣٦١).
(٥٦) م٣، ص.ص (٣٧٢ - ٣٧٣).
(٥٧) م٣، ص (٤٤٥).
(٥٨) م٣، ص (٥١٩).
(٥٩) م٣، ص (٥٢١).
(٦٠) م٣، ص (٥٢٤).
(٦١) م٣، ص (٥٢٧).